

الطائفة الثانية

منهج البحث في التحليل النفسي

إن مناهج البحث في التحليل النفسي تعتبر وسطا بين الطريقة التأملية القديمة وبين الطريقة التجريبية الحديثة .

ففى الطريقة القديمة كان البحث فى علم النفس ينبئ على التأمل الباطنى (١) وحده ، فكان الباحث يلاحظ ما يدور بنفسه من الحالات النفسية ويحاول أن يحللها وأن يربطها بأسبابها ونتائجها ، ويستخرج منها ما يعتبره أساسا للتفسير والتعليل ، وكانت النتيجة أن تعرض علم النفس لأن تكون حقائقه مبنية على الفحص "الشخصى" (٢) مع ما يلزم ذلك من اختلاف النتائج باختلاف الباحثين ، وظل يسير على هذا المنهج حتى بدأ التجريب يأخذ طريقة إلى علم النفس رويدا رويدا حتى ثبتت قدمه عند ما أسس "فونت" (٣) معمله الشهير فى لينزج بألمانيا فى أواخر القرن الماضى وجم إليه العشرات ممن اشتهروا بعد ذلك وأسسوا معامل مماثلة فى أمريكا وأوربا .

وقد وجد علم النفس فى هذه الأداة الجديدة وهى التجريب ما يزيد حقائقه دقة ويرفع من شأنه بين العلوم الأخرى ، ولذلك فقد زادت أهمية التجريب فى علم النفس وتنوعت وسائله وأصبح يعتمد على القياس والإحصاء .

أما التحليل النفسى فقد نهج لنفسه منهجا وسطا ، لاهو بالتأمل ولاهو بالتجريب . والوسيلة الأولى التى اتبعها أصحاب التحليل فى بحثهم هى استقصاء الحوادث الماضية عند المريض فى أثناء التنويم المغناطيسى ، ولكنهم سرعان ما هجروا التنويم — وحسنا فعلوا — لما هو مصطبغ به فى أذهان الناس من صبغة هى أقرب إلى أعمال السحرة والمشعوذين ، ولما يحيط به من غموض ورمية ، ولجأوا إلى التحليل النفسى . والتحليل النفسى فى واقع الأمر نوع من التأمل الصريح العميق يدور حول أخص ما يمس حياة الشخص من الشؤون . وهو

يحتاج إلى أن يرسل الشخص نفسه إرسالاً مطلقاً— وهذا الإرسال المطلق يحتاج إلى الكثير من الوقت والتدريب— فيذكر لطيفيه كل ما يحول بخاطرته ، وتستمر عملية ”الإفضاء“ هذه مدة طويلة .

ووظيفة المحلل النفسي أن يضع أصبعه على تلك العناصر من تجارب المريض التي يتوقع أنها تكون أسس اضطرابه النفسي . وكلما تبين عنصراً منها ، طلب إلى المريض أن يزيد في كلامه عن هذا العنصر بالذات ، وسرعان ما ينكشف له ما لم يكن ينتظر ، وهكذا حتى يصل في النهاية إلى أن يكشف العناصر الفعالة في حالة المريض .

فاذا كشف هذه للمريض بدوره وعرفته الجانب الخفي من قصة حياته ، وألقى النور عليه ، تحسنت حال المريض واستطاع أن يواجه الحياة بنفس أكثر هدوءاً واطمئناناً .

هذه هي قصة كل تحليل نفسي ، وهي نفسها قصة التحليل النفسي ”كعلم“ . فمجال البحث هو مجال العلاج النفسي ، ومايكشف من الحقائق إنما يكشف أثناء استخدامه للعلاج ، وليس على المحلل رقيب ، وليس هناك ضمان مباشر لصحة استنتاجاته غير النتائج التي يحصل عليها .

وقد كان لعقريّة فرويد الفذة ، وإكبابه على العمل ، ووفرة إنتاجه ونفاذ بصره ، الفضل كل الفضل في أن جعل هذا العلم يقف على قدميه ، ذلك أن فرويد جعل من النتائج الاكلينيكية التي وصل إليها قاعدة لتفسير السلوك الإنساني عامة ، ولو أنه اقتصر على اعتبارها ”وسائل علاجية“ أو ”فروضا عملية“^(١) ، لظل حياته يعالج المرضى ، أو على الأكثر لأصبحت مدرسته مدرسة علاجية لا أكثر . والواقع أنه لو اقتصر على ذلك لما وجد المعارضة والنقد اللذين وجدتهما إذ خرج بنظريته إلى المحيط الواسع لعلم النفس بدل أن يقصرها على المحيط الضيق للعلاج .

وقد أخرج فرويد نظرية التحليل النفسي كما أخرج دارون نظرية التطور نتيجة لملاحظات عديدة شاملة ، بحيث صعب على معارضيه تنفيذها بالجملة ، لأن الشواهد والأدلة بالغة من الكثرة مبلغاً يجعل هذه المحاولة فوق الطاقة .

وقد وجد فرويد كما وجد دارون الكثير مما يؤيد نظريته في ميادين جديدة لم تكن ضمن الدائرة التي عمل فيها أول مرة .

وقد لا يرتاح الناس إلى نظرية فرويد كما لم يرتاحوا إلى نظرية دارون ، ولعل الإنسان لا يمكن أن يرضى عن يطاعه على حقيقة أصله البعيد أو القريب ، وخصوصا إذا كان هذا الأصل مما لا يفاخر به . ولكنهم يجدون في كلا النظريتين حيوية فائقة ، وقدرة على الاتساع والامتداد ، وعلى تناول الكثير من الظواهر المستحدثة ، وتفسيرها على نفس الأساس العام ، فكما أن دارون وجد من علم الحفريات ، وعلم التشريح ، وعلم الأجنة ، ومن النبات والحيوان ما يؤيد النظرية التطورية ، فقد وجد فرويد في الأحلام ، وفلتات اللسان ، وفي سلوك الأطفال والمتوحشين ، وفي سيكولوجية الفن والجمال ، وفي سيكولوجية الجماعات وغيرها ما استطاع تفسيره بدون أن يدخل تعديلا على نظريته الأساسية مما زاد هذه النظرية تأييدا وثبوتا .

فنظرية فرويد إذن مثل نظرية دارون ، التي قيل عنها سرارا إنها مما لا يمكن إثباته أو نفيه بنفس البساطة التي ثبت أو نفى بها تقريراً علمياً محدوداً ، وما ذلك إلا لأن كلاهما تشمل تفسيراً واسع المدى لمجموعة شاسعة من المظاهر المستمدة من ميادين متعددة ، ولكن الحقائق والملاحظات تشير إليها إشارة لا يستطيع تجاهلها .

وكما أن نظرية دارون قد جمعت شتات علوم الحياة تحت مبدأ واحد فكذلك نظرية فرويد قد جمعت شتات المباحث المتعلقة بالنفس البشرية تحت نظرية واحدة .

وكلاهما في الواقع من الوجهة العلمية من نوع الفروض^(١) ولكن كلاهما فرض شامل ، فالاشعور والجنسية والحيل الاشعورية ومناطق العقل الخ كل هذه فروض للتفسير وقيمتها في أنها تزودنا بأساس متماسك مستقر لتفسير الحياة النفسية .

ولكن ذلك ليس معناه أن النظرية لا يواجه اليها النقد ، بل بالعكس فقد نُقدت هذه النظرية كثيرا ويمكن أن يخصص النقد الموجه اليها فيما يلي :

(١) إن علماء التحليل النفسي يكتفون فيما بينهم شبه "فرقة" أو "طريقة" يأخذ فيها واحد عن واحد ، ولا يعترفون لأحد خارج محيطهم بأنه قادر على أن يُضيف أو يُنقص من نظريتهم ، فهم وحدهم القادرون على ذلك ، والمبدأ الذى يبنون عليه ذلك هو أن الشخص الذى لم يحلل تحليلًا نفسيًا يكون عرضة للخطأ فيما يتعلق بمباحث التحليل النفسى ، لأن ماتخفيه نفسه من "العقد" قد توجه ملاحظاته واستنتاجه وجهة بعيدة عن الصواب . وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن علماء التحليل النفسى لا يخطئون ، لأن الخطأ فى مذهبهم ليس مجرد هفوة تأتى نتيجة الصدفة ، بل هو أمر "عمدى" من جانب اللاشعور .

وذلك هو السبب فى أن النقد بينهم قليل ، والتعديل فى آرائهم يسير ، ومعنى ذلك أيضا أن طريقة البحث غير ميسورة إلا لفرق قليل اتخذوا هذه الصبغة "الطائفية" فحللوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم .

(٢) وعلاوة على ذلك فإن بحوثهم تجرى فى عياداتهم بين جدران أربعة ، ومآل الصواب والخطأ فيها إلى ما يصوره الممالج ، وعلى ذلك فن العسير "مراقبة" البحث أو "تقنيه" .

(٣) ثم إن الحقائق التى تُكتشف عن طريق بحث حالات الشواذ من المصابين بالاضطراب العصبى أو العقلى لا يصح فى نظر الكثيرين تعميمها على العاديين من الناس ، فربما كان هناك فرق أساسى بين الشخص العادى والشاذ .

(٤) وهناك نقد آخر يعتبر أخطر من هذه جميعا ، وهو أن المسألة يدخل فيها الكثير من الإيحاء ، فهناك إيحاء من المعلم الأول (فرويد) إلى تلاميذه ، ومن تلميذ إلى تلميذ ، وقد ثبت هذا الإيحاء المتسلسل ، اشتراط التحليل الذى سبق ذكره فى المشتغلين بالتحليل ، ثم إن هناك إيحاء من المعالج لمرضاه وهذا الإيحاء ذو شطرين : الأول منهما عام ، لأن من يذهب للعلاج عند محلل نفسانى يعلم من مبدأ الأمر طرفا من نظريته ، وبذلك فهو يتأثر فى اتجاه هذه النظرية ، فإذا

أتى للحلل بدأ الإيحاء الخاص يعمل طردا وعكسا بينهما ، وبذلك قد تكون النتائج مجرد سراب خادع لا حقيقة له .

وعلاوة على ذلك فإن معظم أصحاب التحليل النفسى لم تسبق له دراسة علم النفس العام ، وعلى ذلك فإن تفاهمهم مع سائر علماء النفس كان متعذرا ، خصوصا وقد اتخذ معظمهم موقفا من التعالى والكبرياء فسرهم الكثيرون على أنه مداراة لضعف الحجّة وعدم الوثوق من النفس .

وقد يبعد المدافع عن التحليل النفسى ما يقوله ردا على معظم هذه الاعتراضات ولكن الردود الجدلّية ليست بذات قيمة كبيرة فى هذه الحالة .

وواقع الأمر هو أن التحليل النفسى قد وضع فى أيدينا نظرية كاملة للنفس الانسانية فى مختلف حالاتها . وأن الباحث قد أصبح — وفى يده سلاح هذه النظرية — يستطيع أن يفسر بواسطتها جميع أنواع السلوك ، من أساطير الأقدمين ، إلى حياة عطاء التاريخ ، إلى ملاحى الأطفال ، وقصص الأدباء ، وحياة البدائيين ، ثم هو يجمع بين العادى من الناس وذلك الذى يعانى اضطرابا نفسيا بسيطا ، وبين المصاب بالمرض العقلى ، فى نظرية واحدة .

أما ما ينسب إلى علماء التحليل النفسى من أنهم يكونون "فرقة" فهو صحيح إلى درجة ما ، ولو أن حدة هذه الظاهرة بدأت تقل منذ أخذ طلاب الجامعات يدرسون التحليل النفسى إلى جانب مذاهب علم النفس الأخرى .

وقد حاول الكثيرون أن يجروا ما يصح أن يسمى تجارب تؤيد نتائجها التحليل النفسى ، ونجح البعض فى تأييد بعض نظرياته ، ولكن الطريق طويل جدًا ولا شك فى أنه لن يكون من السهل الوصول إلى نهايته .

والخلاصة أن منهج البحث فى التحليل النفسى ليس منهجا تجريبيًا ، وعلى ذلك فحقائقه ليست فى تلك المرتبة من اليقين التى تبلغها حقائق علم النفس التجريبي ، ولكنه أيضا ليس منهجا تأمليا بالمعنى القديم . وهو يعتمد فى قوته على قدرته على التفسير الواسع المدى لمختلف ميادين النشاط الانسانى .